

جهود الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

في إحياء تدريس اللغة العربية بتلمسان 1932-1947 م.

The efforts of al-šīḥ al-Bašīr al-ibrāhīmī

In the revival of Arabic language teaching in Tlemcen 1932-1947 AD.

أ/ عبد الرحمن بن بوزيان ،

جامعة الجزائر 02

الملخص:

هي كثيرة الكتابات التاريخية التي تناولت شخصية محمد البشير الإبراهيمي وفي مختلف النواحي، في الدين والفكر والثقافة والأدب والشعر وحتى السياسة، فهو مجموعة من المواهب والعبقريات، عاش من أجل الدفاع عن الإسلام الحق، والتهوض باللغة العربية في الجزائر، وعلى أساس ذلك جاء هذا المقال ليتناول جانباً من جوانب جهاده الطويل في ميدان خطير، يشكل وحده عالماً خصباً، يمكن أن توضع فيه دراسات عديدة، ألا وهو جهاده من أجل إحياء اللغة العربية، ونشرها وازدهارها من خلال الدروس التي قدمها بتلمسان طيلة خمس عشرة سنة من العطاء للتعليم.

الكلمات المفتاحية:

الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، اللغة العربية، تلمسان، التعليم، المدارس، الدروس، الإدارة الاستعمارية.

Abstract :

There are many historical writings that dealt with the personality of al-šīḥ al-Bašīr al-ibrāhīmī in various aspects: in religion, thought, culture, literature, poetry and even politics. He lived in order to defend the true Islam, and to advance the Arabic language in Algeria.

On this article, we address an aspect of his struggle for the revival of the Arabic language, its dissemination and prosperity through the lessons he provided in Tlemcen during fifteen years of giving to education.

Keywords: al-šīḥ al-Bašīr al-ibrāhīmī; Tlemcen; Dār al-ḥadīt; Arabic language, Association of Algerian Ulemas Muslim

عرفت اللغة العربية محنتها في الجزائر بالغزو الفرنسي الصليبي يوم 5 جويلية 1830، فمنذ ذلك اليوم والحرب معلنة على اللغة العربية في الجزائر، أين تم الإعلان عن موتها، وبعودة اللاتينية إلى سابق عهدها في الجزائر، كما كانت عليه في العصور الرومانية أيام الاحتلال الروماني، ولكن هذا لا يعني استغناء الفرنسيين عن اللغة العربية، فقد فهموا أن حاجتهم الإدارية والاجتماعية لا يمكن إنجازها إلا باستعمال هذه اللغة، لذلك وقع اشتغالهم فيها على محورين: المحور الأول إهمال تدريسها في المدارس القديمة من خلال قطع مصادر الوقف عنها¹، والمحور الثاني: الاكتفاء بتدريس العربية الدارجة عن طريق المستشرقين²، وفي هذا النطاق اهتم المستشرقون كثيرا بدراسة اللهجات المحلية في الجزائر على حساب اللغة العربية لا شيء إلا لحاجتهم فهم الشعب الجزائري³.

تؤكد الكتابات التاريخية حول تلمسان خلال هذه الفترة على ازدهار الحياة العلمية والثقافية بها قبيل الاحتلال، وبالأخص التعليم الابتدائي، فالمساجد والكتاتيب والمدارس والزوايا كانت منتشرة في ربوع تلمسان، وأحد التقارير الصادرة عن الفرنسيين سنة 1939 أي قبل احتلالها الثاني 1842، يقول أن بها عددا كبيرا من المساجد⁴، وقد أكد على ذلك أيضا أبو حامد المشرفي الذي زار تلمسان بعد احتلالها⁵، إذ يقول: "إن بها نحو ثلاثين مسجدا غير الجامع الكبير"⁶، وبخصوص الوضع التعليمي بكامل مقاطعة تلمسان Subdivision de Tlemcen يذكر لاموريسيير La Morcière⁷ في تقرير له أنه في المدينة التي تحتوي على 12-14 ألف نسمة، هناك 3 ثانويات و50 مدرسة، وفي المقاطعة كان هناك لحوالي 125000 نسمة، و30 زاوية مشهورة، أهمها زاوية سيدي بومدين⁸، والتي كانت تضم 25 تلميذ فقط عام 1952، وهو عدد قليل جدا إذا كان آنذاك التعليم متاحا للجميع وفي كل دوار كانت توجد مدرسة، ول كل مدرسة مكتبة خاصة، وحتى طلبة العلم صارت وجهتهم إلى المغرب الأقصى، وخاصة إلى فاس أين استقر العديد منهم هناك⁹، وتفيد بعض الوثائق بغنى منطقة تلمسان ثقافيا وعلميا والتي ظلت عليه ما بين فترتي الخمسينات والسبعينات من القرن التاسع عشر، وتحليل أحد الجداول الرسمية عن الحالة الثقافية والعلمية عن مقاطعة تلمسان مع منتصف سنة 1854- باستثناء مدينة تلمسان- يؤكد ذلك:

-بلغ عدد القبائل التي حافظت على مدارسها العربية القرآنية ووظفت معلمين -الطلبة- للصبية والطلبة بلغ 56 قبيلة وعرش.

-بلغ عدد التلاميذ والطلبة بدائرة تلمسان وحدها 367.

-عدد الطلبة المتخرجين ليباشروا بدورهم التدريس بلغ 91 طالبا في كل من نواحي الغزوات ومغنية Marnia، وسبدو Sebdo.

-إن مواد التلقين والحفظ والدراسة كانت باللغة العربية، وارتكزت على حفظ للقرآن الكريم وتقديم شروح له، اللغة والنحو، الفقه وأصوله وعلم الميراث¹⁰.

لم يقف التجهيل عند هذا الحد بل تعداه إلى التدخل في مناهج التعليم وطرقه، فحظر على الكتاتيب تدريس كتب اللغة العربية كالأجرومية وألفية ابن مالك إلى جانب حفظ القرآن، بل إنها منعت التفسير كذلك¹¹.

لقد عمد الاستعمار الفرنسي منذ الوهلة الأولى إلى تدمير اللغة العربية في الجزائر، وقد كتب الدوق روفيغو duc de Rovigo عن أهداف السياسة التعليمية الاستعمارية الفرنسية في الجزائر قائلا: "لن تصبح الجزائر مستعمرة فرنسية إلا عندما تصبح لغتنا هي اللغة السائدة وتتأقلم فنوننا وعلومنا...ولا يمكننا التشكيك في ذكاء العرب فالتاريخ شاهد على ذلك. إن المعجزة الحقيقية التي يجب تحقيقها، هي تحويل بخطى بطيئة اللغة الفرنسية محمل اللغة العربية، خاصة إذا ما أقبل الجيل الجديد على التعليم جماعات"¹²، فبعد تخريبه للمدارس والكتاتيب، أجهز على ما تبقى من أثر للغة العربية من خلال تجريد الجزائريين من وسائل الاستمرار، أين ألغت الأوقاف الإسلامية التي كانت تعتمد عليها المدارس بقرار صدر بتاريخ 28 مارس 1843¹³.

رغم التدمير المادي والثقافي الذي آلت إليه الجزائر إبّان الاحتلال إلا أن ذلك لم يمنع إشراقه علماء جزائريين في ميدان اللغة، وجدوا من الخارج منفذا للزوغ والنهل من بحر العميق، وهنا أقف أمام شخصيات عدة أمثال الشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي، وعبد القادر المجاوي التلمساني، وعبد الحليم بن سماية، والشيخ طاهر الجزائري الذي أنشأ المكتبة الظاهرية بدمشق، وكانت له بذلك مساهمته المباشرة في تأسيس مجمع اللغة العربية في دمشق سنة 1919¹⁴.

وقد عرفت تلمسان مع مطلع ثلاثينيات القرن الماضي استقرار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، فخر علماء الجزائر، أين لبث فيها خمس عشرة سنة، ظهرت فيها أعماله الجليلة وأثاره العظيمة، في سبيل النهوض باللغة العربية وإعادة إحيائها، وإرجاع مجدها الضائع.

كم هي كثيرة الكتابات التاريخية التي تناولت شخصية محمد البشير الإبراهيمي وفي مختلف النواحي¹⁵، في الدين والفكر والثقافة والأدب والشعر وحتى السياسة، وأنا هنا لست بصدد التطرق إلى نشاطه في ميدان السياسة والإصلاح والصحافة، ولكن يعيننا جهوده في إحياء اللغة العربية¹⁶.

لقد كان الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أديبا فذا، قلما أنجبت الجزائر مثله في العقود الأخيرة، فهو وحيد زمانه، تمتع بحافظة نادرة، وحب للأدب العربي القديم، فنهل من حياضه ما شاءت نفسه وطموحه، حفظ دواوين الشعر ومتون اللغة وخزائن الأدب والشواهد، فقد بهر المعاصرين في المشرق والمغرب بقوة حفظه واستحضاره ذخائر التراث، وقد ظهر ذلك على لسانه وقلمه، ولم يؤلف الكتب، لأن وقته كان مكروسا كما قال، لتكوين الرجال¹⁷.

وعن اهتمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي باللغة العربية فقد بين مكانتها بقوله: "اللغة العربية هي لغة الإسلام الرسمية ولهذه اللغة على الأمة حقان أكيدان...أحدهما أنها لغة دين الأمة...وحق ثان أنها لغة جنسها بحكم أن الأمة عربية الجنس ففي المحافظة عليها محافظة على جنس ودين معا"¹⁸.

يصف لنا أحمد توفيق المدني في كتابه حياة كفاح إمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بمختلف مجالات العلم، بأن الشيخ: "كان المعلم، وكان الصحفي، وكان الكاتب، وكان الخطيب، وكان الباني، وكان المبشر، وكان والله كل شيء..."¹⁹. وخوفا مما كانت تحدته المدرسة الفرنسية في تغيير الذهنية الجزائرية، عمل الشيخ محمد البشير الإبراهيمي على تشجيع الجزائريين على التنافس لبناء المدارس العربية الحرة، من أجل استرجاع مقومات الأمة الإسلامية، لأن المدرسة كما يمكن أن تكون عامل بناء ودعم لكيان الشخصية القومية للجماعة، يمكنها أن تكون عكس ذلك عامل هدم وتقويض لمقومات الشخصية على حد تعبير الشيخ الإبراهيمي "المدرسة جنة الدنيا، والأمة التي لا تبني لها المدارس تبني لها السجون..."²⁰.

تماشيا مع الرقابة التي وضعتها الإدارة الاستعمارية لتنقلات العلماء المصلحين الذين أحدثوا نهضة ثقافية وفكرية، وجه رئيس بلدية ندرومة المختلطة "Sept" إلى والي وهران يشير فيها إلى عوامل نجاح السياسة التعليمية للعلماء وإخفاق فرنسا يرجع بالأساس إلى "عدم قدرتنا على بناء مؤسسات تعليمية، وتوفير المعلمين كما وعدناهم منذ سنوات"²¹.

بعد تفتن الإدارة الاستعمارية إلى الدور الهام الذي كان يلعبه التعليم في إيقاظ الشعور الوطني، والذي يعتبر وسيلة أساسية في ترسيخ عناصر المقاومة بمختلف أشكالها في نفوس الجزائريين²²، وعملا بتصريحات الساسة الفرنسيين منذ الاحتلال والتي جاء في أحدها: "...علموا لغتنا وانشروها حتى تحكم الجزائر، فإذا حطمت لغتنا الجزائر، فقد حكمناها حقيقة..."، وقد كان ساسة فرنسا يعملون بمبدأ بناء مدرسة أفضل من فيلقين لإقرار الأمن، وبينما كان الطمس والهدم يلحق بالمدارس التي كانت موجودة آنذاك، مثلما لحق بالمسجد الجامعة "التاشفينية" بتلمسان عام 1873، عمدت جمعية العلماء المسلمين بقيادة عبد الحميد بن باديس ونائبه محمد البشير الإبراهيمي إلى بناء العديد

من المدارس والمساجد، وتأسيس العديد من الصحف والنوادي، والقيام بالعديد من دروس الوعظ والإرشاد لتثبيت بقاء اللغة العربية²³.

ولتجسيد مشروع نهضة الجزائر كان الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الأثر البالغ في بناء مدرسة دار الحديث بتلمسان سنة 1937م²⁴، إذ لقيت بمدرسة الإبراهيمي، ويذكر أن الشيخ كان يلقي في اليوم الواحد عشرة دروس²⁵، ويعطي فيها اهتماما كبيرا باللغة العربية، حيث يقول في موضوع تجربته لإحيائها بتلمسان: "ولقد بدأت دروسي ومحاضراتي في تلمسان بالعربية الفصحى وأخذت نفسي بذلك أخذا أصيلا فيه إلى درجة الإغراب أحيانا وكان من وراء الالتزام غرضان: أحدهما إقامة الدليل للمتعلمين باللغات الأجنبية على أن الفصحى لا تعني بحمل المعاني مهما تنوعت وعلت، وأنها تمتد اللغات في ميدان التعبير عن الحقائق والخيالات والخواطر والتصورات. وقد بلغت من هذا الغرض ما أريد. والغرض الثاني أن أحدث في نفوس العامة المحبين للعلم والدين أسفا يقصي مضاجعهم فيدعوهم إلى تدارك ما فاتهم منها في أبنائهم، وكنت أرى من عامة السامعين حسن إصغاء ينبيء باهتمام عميق، فأتى أوله على أنه تأثر بالآيات والأحاديث التي يكثر تردادها في الدرس... والتأثر بكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم طبيعى في المسلم، وكنت أخشى أن ينفضوا من حولي يوما لعدم فهم ما يسمعون لولا أنني آوي إلى ركن شديد من كلام الله ورسوله. وما زلنا على هذا حتى فعل المران فعله، وأصبحوا يفهمون ويتذوقون ويخرجون وهم يتدارسون".²⁶

يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في افتتاحية جريدة البصائر الإصلاحية: "...وأما الحقيقة فهي أن الوطن عربي وأن القبائل مسلمون عرب، كتابهم القرآن يقرؤونه بالعربية، ويكتبونه بالعربية، ولا يرضون بدينهم ولا بلغته بديلا، ولكن الظالمين لا يعقلون".²⁷

وقد حمل الشيخ محمد البشير الإبراهيمي على عاتقه بمدرسة دار الحديث بتلمسان مهمة إلقاء دروس الموطأ بعد صلاة الفجر، ودروسا في الفقه ابتداء من الرابعة بعد الظهر²⁸، ودروس التفسير بعد الغروب بالمسجد²⁹، هذه الدروس التي كانت تحضرها فئات متنوعة من العلماء المصلحين والوطنيين من حزب الشعب الجزائري، وحتى التلاميذ والمدرسين من الثانوية الفرنسية الإسلامية المجاورة³⁰، كما أصبح مكانا لاستقبال وفود الوعظ والإرشاد، فالدروس كانت تنظم ليلا ما بين 20 و23، وكان الحضور يصل أحيانا إلى 300 شخص³¹.

إن المتتبع لكتابات الشيخ محمد البشير الإبراهيمي يجده فارسا في المقاومة عن لغته ولغة أجداده، فكان لا يرضى بالسكوت عن مواجهة أعدائها الفرنسيين والجزائريين المفرنسين، وقد طالب في العديد من المواقف بعدم إدخال اللغة في الصراعات الحزبية داخل الحركة الوطنية الجزائرية، لأنه يرى "أن التعليم عند الأمم التي عرفت الحياة معدود في المقومات التي هي رأس مال الوطن، ورأس المال يسمو عن الحزبيات".³²

إن العروبة التي دعا إليها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ليست عرقية ولا عنصرية، بل هي عروبة لغة وثقافة، وجوهرها اللسان العربي، وهو الذي نزل به القرآن الكريم في قوله "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾"³³.

كانت الإدارة الاستعمارية ترى أن بقاء أبناء الجزائر في الشارع دون دراسة خير من تعليمهم، بل أخذت في مضايقة معلمي المدارس، ومنعهم من التدريس³⁴، وفي هذا الموضوع يقول البشير الإبراهيمي: "إن الحكومة ترى أن بقاء أبناءها في الأزقة معرضين للشر والفساد خير من تعليمها إياهم تعليما عربيا وإسلاميا، فلما صممنا على أداء الواجب علينا لديننا وأمتنا صممت على المعاكسة والتضييق".³⁵

وتذكر التقارير الفرنسية أن الشيخ الإبراهيمي كان يقدم خلال شهر رمضان درسه بعد السابعة مساء، وقد كانت تضم حلقة التدريس ما بين 100 إلى 150 شخصا من البالغين³⁶.

لقد أدرك الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الأهمية العميقة للغة العربية، وأنها عنوان الهوية، ووعاء الفكر، وأداة التواصل، ولسان الدين الحنيف، بقرآنه، وسنته، وتراثه، وحضارته، وعن فضلها على الشعوب الإسلامية حيث ذكر بأنها فتحتهم على مختلف الحضارات الإنسانية، فكانت على حد قوله سببا في تقارب تفكير الأمم وتشابه عقلياتهم، وتمازج أذواقهم وتوحيد مشاربهم، ولولا العربية لاختلفت الأمم الإسلامية في فهم حقائق الدين باختلاف العقليات الجنسية³⁷.

ويتحدث عز الدين إبراهيم -المستشار الثقافي بديوان رئيس الإمارات العربية المتحدة- عن قوة اللغة العربية التي كان يستعملها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في أحد محاضراته بمصر: "لكن الذي استوقفني حينما استمعت إليه هو اقتداره العجيب على استخدام البديع ارتجالا ودون تعسف، ودون افتعال، وخاصة الجناس"38

لقد نجح الشيخ البشير الإبراهيمي في التقريب بين المتعلمين بالعربية بتلمسان، الذين كان أغلبهم من طلبته، وخريجي المدارس والجامعات الفرنسية، وإذا كان بعض هؤلاء يتفادون لقاءه والاتصال به خشية بطش السلطات، فإن أحمد طالب الإبراهيمي يقول في ذلك: "أن أغلبهم كانوا يتقربون إليه، إما بالحضور علنا في محاضراته أو بالمساهمة بحذر في الجمعية التي أسسها لتسيير "دار الحديث"، وكان من بين هؤلاء أطباء، مثل علال ومرابط، وصيادلة مثل بن عليوة وتريكي، وأطباء أسنان، مثل بريكسي ومصلي، ومهندسون معماريون مثل عبد الرحمان بوشامة، ومحامون مثل عمر بوكلي حسن، وقد ذهب بعضهم إلى حد النضال النشط في صفوف جمعية العلماء، مثل البروفيسور عبد القادر محداد".³⁹

وعن دور التعليم المدرسي الذي ترقى به الأمم يقول الشيخ الإبراهيمي في ذلك: "ويدخل في باب التعليم المدرسي وقراءة القرآن الكريم فهو سلاحها الذي به تناضل، وعلى الدعوة إليه بنت مبدأها الإصلاحي، ومن فروع هذا النوع تعليم الأميين من الكبار، وهو من أهم فروع التعليم في نظر الجمعية، وأما المحاضرات التهذيبية فأسلوبها يرتكز على الخطابات المؤثرة في العقول"⁴⁰.

تفعيلا للمقابلة التي جمعت بين الشيخ الإبراهيمي ونائب الوالي بتلمسان في بداية شهر ماي 1943 بدأت الدروس بمدرسة دار الحديث، وقد نظم التعليم بإشراف سبعة (07) من الأساتذة يقدمون دروس أغلبها في اللغة العربية والدين الإسلامي⁴¹.

فتح خلال الفترة ما بين سنة 1943 و1945⁴² قسم خاص ذو مستوى عالي يدرسه الشيخ البشير الإبراهيمي بعد صلاة المغرب⁴³، وكان من بين طلبته: البشير بن شعبان، وعبد الله بوعنان، ومحمد الهادي بخي، وعبدو بريكسي، وأمين بريكسي، ومحمد دالي يوسف، ومولاي الحسن رحمون، ومختار الصبان، ومحمد شيعلي، وعبد الغني السقال⁴⁴، ومن بين أهم المواد المدرسة هي تفسير القرآن الكريم، والحديث الشريف⁴⁵، وتعليم اللغة العربية، والفقه، والشعر، والبيان والعروض⁴⁶.

لقد حرص الشيخ محمد البشير الإبراهيمي على تطوير التعليم العربي الحر، وقد وضع تصورا للتعليم الذي تريده الأمة، والمدرسة التي يتطلع إليها، ويقول عن ذلك: "والأمة تريد تعليما عربيا يساير العصر وقوته ونظامه، لا تعليما يحمل جراثيم الفناء، وتحمله نذر الموت"⁴⁷، ويظهر ذلك الحرص من خلال رسالة وجهها إلى محمد الغسييري⁴⁸ يعاتب فيها تقصيره في حق التعليم في 29 أكتوبر 1944، وجاء فيها: "إن مستغانم وهي في قلق عظيم وأنا في قلق أعظم، وإن بسكرة عاكستني معاكسة تؤدي إلى سقوط قيمتي في عمالة وهران، وسقوط قيمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأن غليزان تنتظر أكثر من أختها. كذلك القول في الحمري ووهران وتيارت وحتى تلمسان...، يا ولدي إذا دام هذا الحال فعلى جمعية العلماء...، بلغ هذا الكلام إلى بوشمال والشيخ العربي التبسي ومحمد خير الدين. إني في تعب عظيم من

الجولات والترهيب والعمل المتواصل لإحضار البرامج ليلا ونهارا منذ أكثر من شهر وكلكم لم تعينوني بشيء، وقد أحظرت كل شيء، ولكنني فشلت لا شيء، إلا لتراخيكم، وعدم تقديركم للموقف الذي أنا فيه.

طلبت الرخصة إلى الجزائر وإلى قسنطينة ولي عشرون يوما وأنا في الانتظار⁴⁹، ولي رجاء قوي في زيارتكم هذه الأيام.⁵⁰ ألقى الشيخ البشير الإبراهيمي عدة دروس وخطب مختلفة منذ افتتاح دار الحديث حتى لقبت بمدرسة الإبراهيمي⁵¹، ويقول عنه تلميذه الأستاذ أحمد بري⁵² الذي انضم إلى الدروس العلمية التي كان يقدمها الشيخ الإبراهيمي لطلبته بدار الحديث سنة 1938، أن عدد الدروس التي كان يقدمها هو اثنا عشر درسا، وهذه الدروس هي:

1- البيقونية في الأصول قبل صلاة الصبح.

2- موطأ الإمام مالك إثر صلاة الصبح.

3- المفرد العلم في رسم القلم.

4- القواعد 'قطر الندى'.

5- التاريخ الإسلامي العام.

6- تحفة ابن عاصم.

7- المعلقات السبع.

8- البلاغة 'الجواهر المكنون'.

9- مقتطفات من الأدب العربي.

10- نسي هذه المادة.

11- التفسير بين العشاءين.

12- النحو الواضح بعد صلاة العشاء⁵³.

تذكر المصادر التاريخية أن عدد الطلبة الذين كانوا يتلقون هذه الدروس على الشيخ بلغ حوالي 25 طالبا، من بينهم الشيخ أحمد بوزيدي من مدينة صبرة، والشيخ الأخضر القباطي وشقيقه عبد الحميد من مدينة الغزوات، والشيخ بن عودة منصري من بلدية وادي الشولي، وابن صولة من مدينة مغنية، ومحمد بابا أحمد ومولاي الحسن البغداي من تلمسان⁵⁴.

لقد تميز من بين هؤلاء جميعا الدكتور بومدين الشافعي⁵⁵، الذي نال درجة الدكتوراه في علم النفس بمصر، والذي يعد من أبرز تلامذته الذين هاجروا مبكرا نحو المشرق، ويقول عن أستاذه وفضله على تلاميذ دار الحديث: "نحمد الله الذي أنعم علينا بخير خليفة له، وأصل جهاده ونفذ رغبته ورفع صوته، أطال الله عمر شيخنا البشير، لقد عرفت فيه الأب العطوف والوجه الحكيم، وأسأل الله أن يرئ للجزائر رجالا يتابعون الكفاح العلمي وبث الثقافة ليكون اسم ابن باديس أساسا قويا لشجرة عالية تمتد فروعها وتتحد أوراقها، ويعم نفعها... وأرجو من زملائي تلامذة الدار الجدد أن يكون لهم أمل كبير في العلم وثقة قوية بالأستاذ الجليل الذي اتسع صدره لطيشنا في أيام الطفولة"⁵⁶.

لقد ساهم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في غرس حب تعلم اللغة العربية، لغة القرآن، ولغة الأجداد، واهتم أكثر بتعليمها بين الصغار، لأنه كان يعول عليهم في مشروع البناء، لذلك نجده بطريقة مباشرة أو غير مباشرة يعود الفضل له في تكوين جيل قائد حريص على لغته ما بعد الاستقلال، وكم هم أكثر، ويقول الشيخ البشير الإبراهيمي عنهم في ذلك: "فجهزت منهم كتائب لحرب الأمية، وجندتهم، فجندت أبطالاً...، ونصبتهم، فنصبت منهم أعلام هداية للجيل الجديد، وأقطاب تربية وثقيف له."⁵⁷

وحتى عند مرضه بقي الشيخ يدافع عن اللغة العربية في وجه الإدارة الاستعمارية الفرنسية التي حاولت القضاء عليها، فكانت رسالته لها كالتالي: "أنا مريض، والموضوع طويل عريض، وقد أصبحت بين عاملين، هم يتجدد وطبيب يتشدد،

وإن حق الضمير لأؤكد عندي من حق الجسد، وليقع الاستعمار أو ليطر فإننا نتعلم لغتنا وديننا، ولو في سمّ الخياط، أو على مثل حدّ الصراط.⁵⁸

خاتمة:

لقد كان للأمة التلمسانية الحظ الوافر من علم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، حيث نهلوا من فيض علومه واقتبسوا من أنوار معارفه، ولم يبخل على أحد بالعلم النافع، فنظم دروسا بالعربية للتلاميذ الوافدين عليه حسب درجاتهم، كالنحو والبلاغة والشعر، والتفسير، والحديث، بالإضافة إلى المحاضرات في المدارس والمساجد، وحتى في النوادي، وبهذا يكون الشيخ محمد البشير الإبراهيمي قد حقق آمال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأحيا بها رسوم العلم بعدما اندثرت في بلد العلم.

الهوامش:

- اقتصر تعليمها رسميا من خلال المدارس الرسمية الثلاث في كل من قسنطينة والجزائر وتلمسان، والتي أنشئت بموجب مرسوم 30 جويلية 1850، حيث أصبحت اللغة العربية لغة أجنبية، وكانت وسيلة تعليمها هي اللغة الفرنسية. حول الموضوع ينظر إلى

, Bulletin de l'Académie d'Alger, N°01, Novembre 1957, p78. "Enseignement du second degré"

² - لتجسيد ذلك تأسست مدرسة الآداب العليا بالجزائر، وهي أيضا مدرسة الاستشراق الفرنسي بالجزائر، أشرف عليها عدة مستشرقين أمثال هوداس، رينيه باصيه، وقد كتبوا عن تلمسان عدة دراسات، تخصص فيها كل من ماشويل، ديلفان، موليراس، ألفريد بال، ويليام وجورج مارسلي. للتفصيل أكثر ينظر أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص28-32.

³ - نفسه، ج8، ص30.

⁴ - سعد الله: المرجع السابق، ج5، ص106.

⁵ - أبو حامد العربي بن عبد القادر المشرفي: عالم جزائري ولد بمعسكر، عاصر نهاية الوجود التركي وبداية الاحتلال الفرنسي، هاجر إلى المغرب بعد الاحتلال الفرنسي، وقد زار الجزائر بعد هجرته منها مرتين، سنة 1849 و 1877، توفي في 1895. أنظر في ذلك بالتفصيل: سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، عالم المعرفة، الجزائر، صص175-191، وكذلك

, Revue Africaine, N°76, 1935, PP259-270. "L'Algerie vue par deux voyageurs musulmans en 1877-1877" Henri Pérès :

⁶ - أبو حامد المشرفي: طرس الأخبار بما جرى آخر الأربعين من القرن الثالث عشر للمسلمين مع الكفار في عتو الحاج عبد القادر وأهل دائرته الفجار، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، الحامة.

⁷ - لاموريسير كريستوف لويس La Moriciere Christophe-Louis Léon-Juchault: من مواليد نانت Nantes، تعلم اللغة العربية واللمجات المحلية، وشارك في احتلال بجاية، ليترقى إلى رتبة مقدم على إثر الاحتلال الأول لمعسكر، وساهم في احتلال قسنطينة، وفي 1840 تولى إدارة مقاطعة وهران، ساهم في احتلال جامع الغزوات، ترقى إلى رتبة جنرال 1848، ثم تولى وزارة الحربية الفرنسية، توفي في 13 سبتمبر 1865، أطلق اسمه على مدينة أولاد ميمون - تبعد بـ 30 كلم شرق مدينة تلمسان -. للمزيد أنظر

Jeanne et Andre Brochier: Livre d'ore de l'Algérie-dictionnaire des personnalités passées et contemporaines 1937-

Imp Baconnier frères, Alger, P190.

⁸ - أبو مدين شعيب بن حسين الأنصاري الأندلسي: هو الولي الصالح صاحب الكرامات، من مواليد إشبيلية سنة 520هـ، تتلمذ على يد الشيخ ابن حرزهم وعلى الفقيه أبي الحسن بن غالب، وأخذ عن علماء المشرق في رحلته للحج، أين التقى الشيخ عبد القادر الجيلاني وأخذ عنه الصوفية، وقد استدعاه الأمير يعقوب المنصور المريني إلى المغرب بعد عودته إلى بجاية أين باشر تعليمه، توفي بالقرب من تلمسان سنة 594هـ، وفي سنة 739هـ/1339 شيد السلطان المريني أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب مسجدا قرب ضريحه بالعباد، وبعد ثمان سنوات من ذلك شيدت مدرسة بجانب المسجد أخذت اسم أبي مدين، والتي سميت في وقت متأخر بـ "المدرسة الخلدونية" نسبة لعبد الرحمان بن خلدون الذي درّس بها. حول الموضوع راجع:

ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، طبع ومراجعة: محمد ابن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908، صص108-114.

⁹ - إيفون تيران: المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة المدارس والممارسات الطبية والدين 1830-1880، تر: عبد الكريم أوزغلة، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007، صص139-140.

¹⁰ - لقد تكونت نخبة جزائرية من مدرسين وعلماء في حواضر ثقافية وعلمية مشهورة مثل تارة التي ينحدر منها سيدي محمد البوحميدي الذي كان له تأثير على سكان هذه المنطقة، وأصبح خليفة على مقاطعة تلمسان في عهد الأمير، ومن أولاد رباح اشتهر فقيه المواريث سي محمد بن عزة. ومن بني وريند المفتي سي محمد بن عبد الله، ومن ندرومة العدل سي محمد بن قانة. حول الموضوع أنظر إبراهيم مهديد: الجزائريون في القطاع الوهراني بين 1900 و1940 الجذور الثقافية، الهوية الوطنية والنشاط السياسي، ج1، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 1999، ص101. وكذلك

-Léon Roches, *Trente- Deux Ans A Travers l'Islam 1832-1864*, T1, Librairie De Firmin- Didot, Paris. 1884, P214.

¹¹ - مازن صلاح حامد مطبقاني: *جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1939*، تقديم: أبو القاسم سعد الله، عالم الأفكار للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص35-36.

¹² - Masse Henri : « Les études Arabes en Algérie », *Revue Africaine*, N74, 1933, P217.

¹³ - تواصل طمس وتدني اللغة العربية في الجزائر، من خلال مرسوم شوطان الصادر بتاريخ 8 مارس 1938، الذي أعلنت بموجبه الحكومة الفرنسية أن اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر. للتفصيل أكثر ينظر

Claude Collot : *les institutions de l'Algérie pendant la période coloniale 1830-1962*, Edition du CNRS, Paris, O.P.U, Alger, p324.

¹⁴ - حول هذه النهضة التي عرفتها الجزائر مع بداية القرن العشرين عد بالتفصيل إلى محمد علي دبوز: *نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة*، ج1، ط1، المطبعة التعاونية، بيروت، 1965.

¹⁵ - ولد يوم 14 جوان 1889 في قرية سيدي عبد الله من عشيرة أولاد إبراهيم في نواحي مدينة سطيف بعمالة قسنطينة، تلقى تعليمه الأول على يد والده إبراهيم وعمه، وفي سنة 1911 غادر الجزائر مع أغلب الشباب الجزائري الذين كانوا لا يريدون تأدية الخدمة العسكرية الإجبارية. وفي طريقه مر بالقاهرة، أين تعرف على بعض أديبائها ومفكرها، وفي المدينة المنورة تابع تعليمه الديني والأدبي، وخلال وجوده بهذا البلد التقى بابن باديس فتطرقا لفكرة الحركة الإصلاحية في الجزائر. راجع عنه بالتفصيل "أنا"، مجلة مجمع اللغة العربية، مصر، ج21، ص142-152.

¹⁶ - تناولت العديد من الأبحاث والدراسات دور وجهود الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في إحياء اللغة العربية، أذكر من بينها محمد مهداوي: *البشير الإبراهيمي واللغة العربية*، ماجستير، كلية الآداب بجامعة دمشق، 1987. محمد العيد تاورته: *نثر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في الفترة من 1929-1939*، مذكرة ماجستير، معهد اللغة الآداب والثقافة العربية، جامعة قسنطينة، ج2، 1980. عبد الملك بومنجل: *النثر الفني عند البشير الإبراهيمي*، بيت الحكمة، سطيف، 2009.

¹⁷ - أبو القاسم سعد الله: *تاريخ الجزائر*، ج8، المرجع السابق، ص82.

¹⁸ - مازن صلاح حامد مطبقاني: *المرجع السابق*، ص101.

¹⁹ - أحمد توفيق المدني: *حياة كفاح مذكرات*، ج2، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص337.

²⁰ - *جريدة البصائر*، ع172-173، 15 أكتوبر 1951.

²¹ - *Archive de la Wilaya d'Oran*: SI 6988, 26 Mai 1952.

²² - *جريدة البصائر*: ع95، 6-12 ماي 2002، ص2.

²³ - جيلالي صاري: *بروز النخبة المثقفة الجزائرية 1850-1950*، تر: عمر المعراجي، منشورات ANEP، الجزائر، 2007، ص9.

²⁴ - تأسست هذه المدرسة بجهود الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأبناء تلمسان من علماء، وطلبة، وملاك، وتجار، ونواب بلديون، دامت فترة البناء 18 شهرا تقريبا، افتتحت يوم 27 سبتمبر 1937 بحضور جمع كبير من العلماء الجزائريين وبعض المغاربة، كانت بحق مدرسة عربية إسلامية عصرية، أغلقتها إدارة الاحتلال سنة 1939م، ثم عادت للنشاط بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، ليعرف تطورا كبيرا بعدها في عدد التلاميذ، ونوعية ووسائل التعليم إلى غاية غلقها النهائي سنة 1956م. للتفصيل أكثر حول الموضوع ينظر عبدالرحمان بن بوزيان: *دار الحديث ودورها في الحركة الإصلاحية بتلمسان 1937-1956*، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر2، قسم التاريخ، 2013.

²⁵ - بن عتيق: *المرجع السابق*، ص199.

²⁶ - محمد البشير الإبراهيمي: *محمد البشير الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي 1929-1940*، جمع وتق: أحمد طالب الإبراهيمي، ط1، ج1، د.ع.إ. لبنان، 1997، ص75.

²⁷ - محمد البشير الإبراهيمي: *"اللغة العربية في الجزائر، عقلية حرة ليس لها ضرة"*، *جريدة البصائر*، ع41، 28 جوان 1948، ص1-2.

²⁸ N°281, October , Bulletin Mensuel D'Information Concernant la Politique Indigène dans le Département d'Oran- et November 1937, P5-6.

²⁹ -مرتاض عبد المالك: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925-1954، ط2، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1969، ص54.

³⁰ -Mohamed Korso : Politique et religion en Algérie : Le cas de L'association des Oulamas Musulmans Algériens en

Oranie 1925-1945 Les structures est les Hommes, T1-2, Thèse de Doctorat, Paris7, 1989, P237.

³¹ -خلال أحد الدروس الذي نظم في بداية شهر ديسمبر 1937 تم جمع 1.600 ف.ف. أنظر

03-12-1937., Tlemcen, 13988 Archive Municipale de Tlemcen :P.M, N°

³² -محمد البشير الإبراهيمي: "جناية الحزبية على التعليم والعلم"، جريدة البصائر، ع46، 23 أوت 1948، ص2.

³³ -سورة الشعراء: الآية 195، 194، 193.

³⁴ -تركي رابح عامرة: التعليم القومي والشخصية الوطنية 1931-1956، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1975، ص167.

³⁵ -تركي رابح عامرة: الشيخ عبد الحميد ابن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ط3، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1981، ص375.

³⁶ 07-10-1937., Tlemcen, 10030 A.M.T :P.M, N°

³⁷ -محمد البشير الإبراهيمي: "العربية: فضلها على العلم والمدنية، وأثرها في الأمم غير العربية"، مجلة الشهاب، مج15، ج1، فيفري 1939.

³⁸ -عزالدين إبراهيم: "رؤية مشرقية لبعض إنجازات الإبراهيمي وإبداعاته"، الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته-الجزائر-، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006، ص155.

³⁹ -أحمد طالب الإبراهيمي: أحمد طالب: مذكرات جزائري أحلام ومحن 1932-1965، ج1، دار القصة للنشر، الجزائر، 2006، ص25-

26.

⁴⁰ -محمد البشير الإبراهيمي: سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين المنعقد بمركزها العام بنادي الترقى 1935، المطبعة الجزائرية الإسلامية، قسنطينة، صص57-59.

⁴¹ L'Activité Indigène dans le Département d'Oran, N°513, juillet 1943, P3.-

⁴² -تجددت الجمعية الدينية لدار الحديث خلال جانفي 1945، وعين فيه بن قلفاط الغوتي، بوصالح عبدالسلام، بن دي مراد العربي، بريكسي الحج عبداللهن بابا أحمد علي، بخشي الحاج غوتي، بوعياد العربي، بخوشة محمد. أنظر بالتفصيل

A.W.O: Rap de P.R.G, P.T, N°40, Tlemcen, 16-01-1945.

⁴³ A.W.O : P.R.G, P.T, Rap N°605, Activité du cheikh Taleb Bachir Ibrahim, Tlemcen 9-10-1944.

⁴⁴ -محاضرة مع الشيخ محمد شيعلي -تلميذ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي- يوم 13-3-2007 بمدرسة دار الحديث بتلمسان على الساعة 14:00.

⁴⁵ -تتضمن دروس الحديث الشريف شرح الحديث وتعريف الراوي، وقد كان عادة يتم اختيار الأحاديث القصيرة حول المسائل الفقهية من عبادات ومعاملات مثل: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى". راجع بالتفصيل الكراس الخاص بدروس الحديث الشريف في أرشيف ولاية قسنطينة: "ج.ع.م.ج"، العلية 1، الملف 'ب'، كراس الحديث الشريف.

⁴⁶ -مرزوق وبن عامر: المصدر السابق، ص243.

⁴⁷ -محمد البشير الإبراهيمي: آثار...، المصدر السابق، ج3، ص283.

⁴⁸ -محمد المنصوري الغسيري: 1919-1974 ولد في دشرة أولاد منصور من دوار غسيرة بأريس، أتم حفظ القرآن في قريته ثم انتقل إلى بسكرة وانظم إلى مدرسة الإخاء ما بين 1929-1931، لينتقل بعدها إلى الجامع الأخضر بقسنطينة، وانتظم بعدها في سلك طلبة الشيخ ابن باديس إلى غاية 1938، ثم انخرط في سلك كشافة الرجاء إلى أن عين باسم الكشافة الجزائرية مرشدا عاما، وأصبح عضوا في لجنة التعليم العليا لـ"ج.ع.م.ج"، ثم مفتشا جهويا، ثم مفتشا عاما في العمالات الثلاث، ألقى القبض عليه في 16 ماي 1945 تنقل بين سجن الكدية والحراش، ومنه نقل إلى معتقل جنين بورزق جنوب عمالة وهران، ليفرج عليه نهائيا في 27 مارس 1946 عائدا منه إلى قسنطينة. راجع عنه محمد الحسن فضلاء: المرجع السابق، ج1، صص279-286. وكذلك محمد الصالح رمضان: "الشيخ محمد الغسيري في سطور"، مجلة الثقافة، ع45، جوان-جويلية 1978، صص105-107.

⁴⁹ -ساهم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في صانفة 1944 مساهمة فعالة في تنظيم المخيم الفدرالي الأول للكشافة الإسلامية الجزائرية المنعقد بتلمسان ما بين 23-30 جويلية 1944 بهضبة لالة ستي، وخلال شهر نوفمبر غادر الإبراهيمي إلى العاصمة ليعود بعدها في 21

ديسمبر إلى تلمسان، وقد تعب الشيخ الإبراهيمي كثيرا من كثرة التنقلات بين العمالات، وإشرافه على الحركة الإصلاحية بالعمالة الوهرانية وحرصه على التدريس بدار الحديث. أنظر

A.W.O : A.I.D.O, N°352, Aout, P3. et N°677, Décembre 1944, P3.

⁵⁰ - A.W.C: Boite N°2, Archive Privées, fonds: Mohamed Ben Ahmed El Mansouri El-Ghassiri, , Dossier N°1,

Correspondance Particulière, Lettre le 29-10-1944.

⁵¹ - جريدة لسان الدين: ع38، 6 أكتوبر 1937، ص3.

⁵² - أحمد بري: ولد في مدينة مغنية سنة 1922، حفظ القرآن الكريم وعمره 17 عاما على يد الشيخ الأخضر منصوري من 'جبالة' بلدية ندرومة، ثم واصل تعليمه بدور المعازيم بلدية مغنية، درس على يد الشيخ البشير الإبراهيمي بدار الحديث، وخلال الحرب العالمية هاجر إلى المغرب واستقر بمدينة تازة، وبعد نهاية الحرب عاد واشتغل بمدرسة التربية والتعليم بمغنية إلى غاية أكتوبر 1945 بعد إلقاء القبض عليه. للتفصيل أكثر أنظر محمد الحسن فضلاء: المرجع السابق، ج3، صص 175-179.

⁵³ - نفسه، ص176.

⁵⁴ - نفسه، صص 177.

⁵⁵ - ولد بتلمسان، واكب منذ صغره المجالس العلمية للشيخ بوعروق في جامع سيدي الجبار، وحضر أيضا مجالس الشيخ الإبراهيمي، ثم واصل تعلمه بجامع الشرفاء، ثم انتقل إلى مدرسة ديسيو الفرنسية إلى أن وصل إلى درجة شهادة البكالوريا، فتقدم إلى امتحانها في صيف 1938 وبسبب اختياره للغة العربية كلغة أجنبية، وقد وقعت محاورة عنيفة بينه وبين مدير الثانوية، وسافر إلى القاهرة لإتمام دروسه لينال شهادة الدكتوراه في علم النفس، ألقى عدة دروس في كلية الطب والآداب بجامعة فؤاد الأول بمصر، للتفصيل أكثر أنظر أبو مدين الشافعي: "ذكريات من بعيد"، مجلة العبقريّة، ع2، ماي 1947، صص 45-48. وكذلك جريدة البصائر: ع218، 20 فيفري 1953، ص5.

⁵⁶ - أبو مدين الشافعي: "إلى أستاذي البشير"، جريدة البصائر، ع98، 12 ديسمبر 1949، ص5.

⁵⁷ - محمد البشير الإبراهيمي: "قادة الجيل الجديد في ميادين العلم"، جريدة البصائر، ع56، 15 نوفمبر 1948، ص1.

⁵⁸ - كتب الشيخ مجموعة من المقالات في صفحات جريدة البصائر حول واقع تعليم اللغة العربية في الجزائر والعراقيل الإدارية القمعية في حق معلمي اللغة العربية في مدارس جمعية العلماء المسلمين. عد بالتفصيل إلى مقالاته تحت عنوان "التعليم العربي والحكومة"، جريدة البصائر، ع65-74، 31 جانفي 14 أبريل 1949.